

من .. كتب التراث

البرصان والعرجان والعميان والهلوان للجاحظ

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر/ البرصان والعرجان والعميان والهلوان، تحقيق محمد مرسى الخولي. - القاهرة، دار الإعتصام،

محمد عبد الغني حسن

هذا كتاب قيم، وتأتي قيمته من نواح كثيرة، فهو من كتب «أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ»، وهي كتب تعلم العقل والأدب. وهو من المخطوطات العربية النادرة التي ظلت مطوية في ضمير العصور زمنًا طويلاً، ومحجوبة في خزائن الكتب، لم يدركها محقق يحققها، ولا ناشر ينشرها، ولا مطبعة تضم حروفها الغالية في كتاب مطبوع، وكيف يُنشر مطوي؟ ويظهر كنز مخفي؟ إلا بمعجزة يصنعها الله صانع البدائع، وكاشف الروائع؟ وهو فوق ذلك - كتاب ثمين في مادته، عجيب في موضوعه، فقد جمع فيه الجاحظ - وهو جامع لكل عجيب - أخباراً كثيرة، وأحاديث نادرة طريفة عن ذوي العاهات من أشرف العرب ومشهورهم منذ الجاهلية حتى عصره، يروي آثارهم، ويحدث أخبارهم، فيفيض متدفق لا يغيض، وفي حديث مسلسل يجرب بعضه بعضاً، فلا يفلت منه رئيس، ولا شريف، ولا فارس؛ يسوق عاهة الشريف ثم يروي من الأخبار ما يلبسها، ومن الطرائف ما يلم بها، ويسوق من الحكايات ما يتصل بها، ومن الأمثال ما ضرب فيها؛ كالذي فعله حين تحدث عن عاهة الشاعر الجاهلي الشريف: «ضمرة بن ضمرة النشلي» - وكان من البرصان، فقال عنه في كتابه هذا: (انه من الرجال إلى الملوك والحكام من العرب، وهو الذي لما رآه الملك نحيفاً، قال: تسمع بالمعيدي لا أن تراه)، وأورد طرفاً من شعره، وشعر غيره فيه.

عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة.

وكأن الجاحظ أراد بكتابه هذا أن يناقض «الهيثم بن عدي» حين ألف كتاباً صغيراً في أخبار ذوي العاهات من الأشراف،

المرتضى في مجلس آخر عن «ذى الأصبع العدواني» فقال عنه: (وهو أحد حكام العرب في الجاهلية. وذكر الجاحظ أنه كان أثرم)...

وفي النسخة الخطية لكتاب «معجم الشعراء» للامام المرزباني كتب كاتب في هامش الأصل العبارة التالية: (قال الجاحظ في كتاب البرصان تأليفه) فأشار إلى الجاحظ، وذكر اسم كتابه على غير وجهه، فأسماء «البرصان» وكأنه اكتفى بذلك عن إطالة المجال بذكر بقية العنوان... وكذلك فعل ذلك الكاتب المجهول في صفحة أخرى من أصل «معجم الشعراء» للمرزباني، فكتب على هامش الأصل العبارة التالية: (... قال يفخر ببياضه، فيما ذكر الجاحظ في كتاب البرصان).

وكذلك فعل ابن المعتز في كتابه (طبقات الشعراء) فقد جعل اسم كتاب الجاحظ: (البرصان) فقط دون ذكر لبقية العنوان. وواضح أن ذلك من باب الاختصار..

أما ياقوت الحموي—صاحب معجم الأدباء—ففي ترجمته الطويلة للجاحظ ذكر هذا الكتاب في فهرست كتب الجاحظ، ولكنه أسماه (العرجان والبرصان) فزاد كلمة العرجان، وقدمها على كلمة البرصان؛ وهذا جمع اثنين من أصحاب العاهات، ولم يشر إلى (العميان والحوالان) كما هو الاسم الكامل لهذا الكتاب.

ولقد كان العثور على المخطوطة الوحيدة الفريدة لهذا الكتاب—في خزانة للكتب ببلدة (بزو) المغربية، على يد الدكتور صلاح الدين المنجد—كشفاً أدبياً هاماً، وحدثاً علمياً خطيراً. ولأنطيل في قصة كشف هذا المخطوط الجاحظي الثمين النادر وتصويره وإيداع مصوره منه في مكتبة معهد المخطوطات التابع للجامعة العربية، فذلك حديث ليس هنا موضعه. ولكننا نشير إلى اهتمام زميلنا الجمعي العلامة الشيخ حمد الجاسر بهذا الكتاب الذي لم يكن قد قدر له أن يطبع بعد، فنشر مقدمته في مجلة «العرب»: الجزء الثاني عشر، السنة الثانية، أيلول سنة ١٩٦٨، ليقدمه إلى العلماء والأدباء والباحثين تعريفاً به. وتوفاً بقدرة، لعل الله يتيح له من أهل الغيرة على تراثهم العربي من ينشره بعد طي، ويطبعه بعد خط، و يظهره بعد خفاء.

وأراد—أعني الهيثم—من ذكر أخبارهم أن يحط من أقدارهم بذكر مثالهم. على الرغم من شرفهم. كأن بذلك يعوض ما فاتته من شرف النسب، لأنه كان — كما قال فيه أبو نواس— هاجياً— مغموراً في نسبه، مطعوناً في أصله. ففي كتاب «الهيثم» حقد دفين، وحسد كمين؛ أما كتاب الجاحظ فقد برأه الله من تهم الحقد، وعقد الحسد. فكان أدباً صرفاً دافع به عن ذوي العاهات، فلم يذكرهم شماتةً فيهم، ولا انتقاصاً لهم، وإنما كان ذلك—كما يقول في مقدمته الرصينة (ليجعل ذلك سبباً إلى قصص في أولئك المعرجان، وإلى فوائد أخبار في أولئك العميان، وإلى أن جماعة منهم كانوا يبلغون مع العرج مالا يبلغه عامة الأصحاء، ومع العمى يدركون مالا يدركه أكثر البصراء..)

فالغاية في كتاب الجاحظ شريفة، والقصد برىء غيرتهم، على حين كان «الهيثم» موتوراً لغميزة في نسبه، فظن أن أشراف ذوي العاهات هم واتروه، وأدار كتابه حولهم على سبيل التهوين والتحقير.

ويمتاز كتاب الجاحظ أيضاً بأن فيه من الأخبار ما لم يأت في كتاب مما تقع عليه عيوننا أو وقع في أيدينا، ولعلها جاءت في كتب مفقودة أضاعها الزمان بالفقدان. كما أن فيه أشعاراً كثيرة لم ترد فيما وصل إلينا من شعر. فحين يورد شعراً لفلان من الشعراء ترجع إليه في ديوان ذلك الشاعر فلا تجده، مما يؤكد لنا أن شعراً غير قليل قد ضاع من دواوين أصحابه التي وصلت إلينا.. ولا يقال هنا: إن الجاحظ كان يخلط في الرواية، ويضطرب في الحفظ، وينسب ما لهذا لذلك؛ فهو موثوق الرواية، ويعد كتابه هذا إتماماً لما فات، واستدراكاً لما ضاع. ومن هنا كان ذا قيمة أدبية كبيرة.

ومن العجيب أن كتاب الجاحظ هذا لم ينل في القديم من الشهرة ما يستحقه، ولم يدرك من الذكر ما يستأهله. فقد مر به «الشريف المرتضى» في أماليه المعروفة باسم (غرر الفوائد، ودرر القلائد) مروراً عابراً كالإمامة الضيف، أو سحابة الصيف. ففي مجلس من مجالسه العلمية الأدبية عرج على (بشر بن المعتمر) فقال عنه: (وقال أبو القاسم البلخي: إنه من أهل بغداد، وقيل من أهل الكوفة. وذكر الجاحظ أنه كان أبرص...) فاكتمى بذكر الجاحظ، واستغنى به عن ذكر اسم كتابه. وكذلك فعل الشريف

الجامعات وكليات الآداب الذين لا يقيمون وزن بيت، ولا قراءة نص... وتلك حال إذا أوجبت الأسف من ناحية، فإنها توجب التنبيه والانتذار من ناحية أخرى.

يبدو أن المحقق الفاضل قد أحسن من نفسه قصور جهده عن مداه، وأدرك أن عمله المتسرع سيعرضه للوم اللاتمين، وسخط الساخطين، فقال في المقدمة—وكانه يمهّد لنفسه العذر فيما وقع في التحقيق من أوهام غلاظ: (والمهتمين «كذا» بالمخطوطات وتحقيقها يدركون ما في تحقيق المخطوطات ذات الأصل الواحد من الغرر والمزالق التي تزل بها قدم الحريص الواعي المتمكن. وقد يهون الأمر إذا كان الكتاب ذا موضوع عام يجد له محققه من المراجع الكثير الذي يعرضه عن النسخة الواحدة. فبالك والنسخة ذات خط مغربي، كثيرة التحريف والسقط؟ ثم أن موضوع الكتاب موضوع فريد، لا تجد له كثيراً من المراجع التي تأخذ بيدك فتهديك الطريق. وكثيراً ما كدت أنصرف عن الكتاب أمام مشاكلك التي لا حصر لها، والتي كنت أقف أمامها أقلب فيها نصاً من النصوص وأنا عاجز عن إدراك صحته، فلا النسخة توضحه، ولا المراجع تهدي إليه...).

وأخيراً يحمد محققنا الله الذي (ممكنه أن يقدم هذا النص مطمئناً إلى أنه أصبح في الصورة الملائمة أو قريباً منها...) هكذا والله يقول! ولكن اطمئنانه هو لا يهمننا مادام أهل التحقيق الدقيق، والضبط والتوثيق لا يطمئنون إلى النتائج التي وصل إليها والتي ستكشف عنها بعض الملاحظات الآتية:

- جاء في صفحة ح من مقدمة المحقق: (إن هؤلاء قالوا في منهن أدب كثير... كما قالوا في تغلبهم على ضعفهم أدب أكثر...) ولا أدري على أي نحو أو لغة يستقيم هذا الكلام.
- جاء في صفحة ك من مقدمة المحقق: (والمهتمين بالمخطوطات وتحقيقها يدركون... الخ) ولا أدري على أية لغة نصبت كلمة: والمهتمين؟
- جاء في صفحة ٦ من متن كتاب الجاحظ: (وليس سوء الظن في الجملة بالمنعوم، ولا بحسن الظن بالمحمود). وصوابها: ولا حسن الظن بالمحمود.
- في صفحة ١٨ جاء البيت الآتي من شعر أبي طالب عم

وكذلك كان... فقد هباً الله لهذا الكتاب الأستاذ محمد مرسي الخولي—الدكتور محمد مرسي الخولي فيما بعد—الموظف في معهد المخطوطات بالجامعة العربية، وصاحب الجهد الكبير في مجلة معهد المخطوطات ونشرته الدورية، فاقتحم الميدان—مع وحدانية المخطوطة وانفرادها، ومع كثرة وقوع التحريف فيها، ومع اضطراب ترتيب أوراقها وترقيم صفحاتها بما لا يؤمن معه العثار، وتصعب معه المهمة، وذلك مما حدا أساتذة الخولي في الأزهر الشريف أن يشنوه عن عزمه لا اختيار هذا الكتاب وتحقيقه وتقديمه موضوع رسالة لنيل درجة الدكتوراه، لأن المخطوطات الوحيدة مزلفة للخطر حين يراد تحقيقها.. وهكذا عدل (الخولي) عن تقديم الكتاب ليكون رسالته إلى الدرجة العلمية، إلى تقديمه للتحقيق والنشر في مجال تحقيق التراث.

ويبدو أن تهافت الباحثين في الحصول على نسخ مصورة من فيلم معهد المخطوطات كان دليلاً على اهتمام المحققين به، والمسارة إلى نشره محققاً، توسيعاً لمدي الانتفاع به. ويبدو كذلك أن الدكتور محمد مرسي الخولي أراد أن يتعجل الزمن، وأن يكون أسبق الطامحين إلى نشر هذا الكتاب، فتهباً لذلك على وجهه من التسرع لا يحمّد في مجال التحقيق، ومن هنا وقع في الكتاب المطبوع من الأوهام والأخطاء ما يستكثر وقوعه في كتاب للجاحظ كان جديراً أن لا تخرجه العجلة عن تثبيت الرّيث، كما كان حرياً—وهو وحيد في العالم كله—أن يفاض عليه من الأناة ما هو أليق به، وأكثر ملاءمة لقيمته، وتناسباً مع قدره.

ولا ننكر أن جهداً قد بذله المحقق يصفه بأن الله وحده عالم به؛ ولكن يبدو أن العمل كان شاقاً من بدايته، وأن امتلاء المخطوط كان أضخم بكثير من طاقة المحقق الفاضل وجهده، فظهرت في المطبوع هفوات وعشرات غليظة لا يجوز السكوت عليها، ولا الاغضاء عنها؛ وإلا كان في ذلك مدّ لحيل الاجترار على التحقيق بغير آلة مطاوعة، أو أداة ممكنة. والحق أن شكرنا للمحقق على ما بذل في التحقيق من جهد لا يصرفنا عن لومه على ما وقع في العمل من قصور. فقد بلغت الأخطاء والأوهام والمآخذ حداً لا يحمد معه السكوت والاعضاء، سواء أكان ذلك من حيث عدّها أم من حيث نوعها، وخاصة في الشعر المكسور الذي لا أمل في صلاحه أو إصلاحه على يد كثرة من المحققين، حتى من رجال

النسبي عليه الصلاة والسلام حين عيَّره بعض نساءه
بالعرج :

بوجه الأرض لا يعفو لها أثر يسي ويصبح فيها البلق ضللاً
والشطر الأول مكسور ولا معنى له، وكان يجب تصحيحه عن
روايات ديوان النابغة.

- جاء في صفحة ٣٩ هذه العبارة مضبوطة بالشكل
هكذا: (وليس يعتري السودان من كي البلاء كالذي يعتري
الشُّقران). وضبط السودان، والشقران بالضم خطأ والصواب
فتحها على المفعولية.
- ورد في الصفحة ٤٧ البيت الآتي لمعاوية بن سنان الكلبي :

فقام فتى وشوشي الذرا ع لم يلبث ولم يهْمُ
والعجز مكسور الوزن، لأن صوابه : لم يتلبَّث، وعليها يستقيم
الوزن .

- في صفحة ٥٩ ورد البيت الآتي هكذا :

ففات من فات من عامر ركضا وقد أعجل أن يلجأ
والصدر مكسور الوزن لأنه به كلمة ناقصة، وصوابه :

- ففات من قد فات من عامر ركضا. وقد أعجل أن يلجأ
- في صفحة ٦٣ ورد البيت الآتي من شعر عجلان بن سحبان
مضبوطاً بالشكل هكذا :

ولا كأخي دُهل إذا قام قائلنا ولا الأسلع الحمالي حين يجيب
وقد ضبطت (دُهل) بفتح الهاء، والصواب : دُهل باسكانها كما
هو معروف من اسم هذه القبيلة. وقد أدى تحريك الهاء إلى
كسر الوزن. وقد تكرر هذا الوهم في صفحة ٦٥.

- في صفحة ٧٥ ورد البيت الآتي من شعر السيد الحميري :

فبانفس حتى متى تُلَيِّطُ من على الخائن الأول المرتشي ؟
والصدر مكسور لأن الفعل ليس (تَلَيِّطُ) كما ضبطه المحقق،
ولكنه : تَلَتَّطُن. وماضيه : التَطى، أى التصق .

وأنا ابن مجدتها في صَبَابَتها وسليلُ كل مسود مفضل

وصدر البيت مضطرب مكسور الوزن، وكلمة «صَبَابَتها» لا
معنى لها إذ لا محل للصَّبَابَة والغرام هنا! وإنما
هى : (صُبَّابها) -بالياء المثناة التحتية أولاً، والباء الموحدة

التيحة ثانياً-أى خيارها وصميمها. يقال : هو من صَبَّابهم، ومن
صُبَّابَتهم، أى من خيارهم .

وصواب البيت إذن هو كما يلي :

وأنا ابن مجدتها، ومن صُبَّابها وسليلُ كل مسود مفضل

- في صفحة ١٩ ورد البيت الآتي من شعر أبي طالب :

أنا للخمسة أنف حين ما للخمسة عاطش

والصدر مكسور، وصوابه :

أنا للخمسة أنف حين ما للخمسة عاطش

- جاء البيت الآتي في صفحة ٢٧ هكذا :

حينئذهم حتى أضاء لنا من الصبح مشهود الشواكل أبلق

والصدر مكسور الوزن لأن به نقصاً في الألفاظ . ولم اهتمد إلى
صوابه .

- في صفحتي ٢٧، ٢٨ ضبط المحقق بالشكل الفعل سُمُوا،
بتشديد الميم وضمها، والصواب فتحها، لأن الفعل : سَمَى،
معتل بالألف، فيفتح ما قبل واو الجماعة فيه . وقد تكرر هذا
الوهم في ص ٦٨.
- جاء في صفحة ٣١ بيت للنابغة الذبياني هكذا :

وقد فسره المحقق أو فسر بعض ألفاظه في الهامش بأن (الصور): جمع صورة، وهى الشكل. وهذا وهم غليظ. فالصور ليست جمعاً لصورة لأنها تكسر الوزن. أما الصواب فالصور مفرد لا جمع. ومعناه: صفحة العنق.

- وفي صفحة ١٤٠ جاء هذا الكلام: (والفرس شجج النساء كان به عقلاً، وقال عمر بن العاص) وفي هذه العبارة وهما: الأول، عقلاً، وصوابها: عقلاً. والثاني رسم عمر بن العاص بغير واو ملحقة بها، والصواب: عمرو.
- في صفحة ١٦٦ جاء الكلام الآتي على صورة بيت شعر من صدر وعجز:

كأنه إذا ما مشى مستكره الرجل أقزل

- والواقع أن هذا الكلام جزء من بيت شعر من بحر الطويل، وقد ضاع من صدره ألفاظ، وبقيت كلمة كأنه. أما عبارة: (إذا ما مشى مستكره الرجل أقزل) فهي عجز البيت بتمامه!
- في صفحة ١٦٩، ضبط المحقق الفعل: وأضحوا بضمة على الحاء، والصواب أن تفتح، لأن الفعل معتل بالألف فيفتح ما قبل واو الجماعة. ويظهر أن المحقق مصرّف في الكتاب كله على ضم ما قبل واو الجماعة في الفعل المعتل بالألف.
 - في صفحة ١٨٩ ورد الرجز الآتي هكذا:

يا سعد كيف أنت إذا أصحابي عاتبتهم فتركوا عتابي

- والصدر مختل الوزن، وصوابه أن توضع إذ، بدلاً من إذا
- في صفحة ٢١٥ جاء هذا البيت للشاعر أبي عبدان المخلع:

الدين أدنانني، وما كنت بالدينى وأدنى من الدين الذي لديات

- والصدر مكسور الوزن، والبيت كله يحتاج إلى تقويم لفهم معناه
- في صفحة ٢٢٤ ورد البيت الآتي من شعر حميد بن مالك الأرقط:

مقدمين أنوفاً في غطائهم حجبنا لا جدعت تلك العرائين

- في صفحة ٨١ جاءت هذه العبارة: (وزعموا أن بني نُمير برُصاً...)، وصحته: برُص بالرفع على أنه خبر أن، فلا محل لنصبه.
- في أول صفحة ٨٤ ورد هذا البيت:

أو لبيب استوى حنكة موفى المرة، مأمون العقد

والشعر مكسور في صدر البيت ولا معنى له، وقد علق عليه المحقق في الهامش بقوله: (غير واضحة في الأصل، ويصعب قراءتها بصورة مرضية، ولعلها كما أثبت).

- في رأس صفحة ١١٣ ورد البيت الآتي هكذا:

هذا غلام حسنٌ وجهٌ مستقبل الخير، سريع التمام

والصدر مكسور ولا معنى له على هذه الصورة، والصواب: هذا غلامٌ حسنٌ وجهه، بهاءين: الأولى من بنية الكلمة، والثانية ضمير المضاف إليه.

- في صفحة ١١٨ ضبط المحقق الفعل: تثرى بفتح التاء، أى تصير ثرياً، والصواب أن تضم التاء لأن الفعل أثرى، فيضم حرف المضارعة فيه.
- في صفحة ١٢٢ ورد البيت الآتي هكذا:

وقد فتن الناس في دينهم وخلأ ابن عفان حزناً طويلاً

- وقد رسم الفعل: خلّى بمعنى ترك بالألف المقصورة. وهو من أوهام النساخ وكان يجب تصويبه والتنبيه عليه.
- في صفحة ١٣٨ ورد الرجز الآتي:

يا أعرج الرجل، صغير الجرم وناقص الصور، خبيث الاسم

والعجز مختل الوزن، وصوابه: (ألا جدعت) ليستقيم وزنه .
 • في صفحة ٢٣٤ ورد هذان البيتان من شعرا بن لقيط :

ليس إذا قلت أبونا وأمننا هناك مُدَّان ولا مستقارب
 فها هذه أقدامنا في نعالكم وأنفنا بين اللحى والحواجب

والعجز في البيت الأول مكسور. وكذلك العجز في البيت الثاني ، وصوابه : وآنا فنا - بصيغة الجمع لا المفرد .
 • في صفحة ٢٤٩ ورد البيت الآتي من شعرا أبي الدهماء :

للكواعب يادهماء قد جعلت تزور عني و يلقى دوني الحجر

وبعد: فهذه نماذج فقط مما وقع في كتاب الجاحظ من أوهام التحقيق، وهي أوهام طالت وتمطت حتى قعد الطول عن حصرها، ومنعت الكثرة من استيفاء ذكرها، أرجو أن تكون في جملتها باعثة للمحقق المجتهد الفاضل على أن يعيد تحقيق كتاب (البرصان والعرجان، والعميان والحولان) للأمام الجاحظ على منهج علمي، ونهج سوي، أو دافعة لغير الدكتور محمد مرسي الخولي - من الذين كانوا يتهافون على تصوير المخطوطة من فيلم معهد المخطوطات العربية - ومن الباحثين المتأين الذين لا تُعجلُهُم الظروف - مهما كانت - عن التجويد والإتقان الضروريين لإحياء تراثنا القديم العظيم . وبالله التوفيق .

* *

وصدر البيت مكسور الوزن لأن به نقصاً في الكلام ، وصوابه :

خدا صحت تجارب ..
 تنصت
 بالهامة
 والشاعرية
 انما

عن ربا عيان

للكتاب الكبير والشاعر الرقيق
 الاستاذ الراحل
 محمد سعيد العامودي
 المجلد الثالث من
 السلسلة الشعرية
 تطلب من موزعي
 المكتبة الصغيرة